حركات النِّضال في جبل عامل لجهاد بنُّوت
خطاب مرحلة التحوُّلات الجديدة

قراءة في التاريخ هادفة

يتوقَّف جهاد بنوت، في كتابه: «حركات النضال في جبل عامل»، في المحطات التاريخية التي مرَّ بها هذا الجيل، منذ الفتح الإسلامي حتى أيامنا هذه، ليسلِّط الضوء على حركات المقاومة التي نهض بها أبناؤه طوال قرون عديدة.

يبرز هذا البحث خصوصية من دون شكٍّ، غير أن خصوصيته كما تبدو في سياق الكتاب خصوصية منتظمة في البنية العامَّة. منذ البداية، يقول المؤلِّف: إنَّ جبل عامل بقعة من بقاع الوطن العزيز الكبير، وهو إنَّما يؤرِّخ «لحركات النضال في إحدى أهم قلاعنا العربية المقاومة».

إنَّ التأريخ لحركة النضال يعني اختياراً ينشئ سياقاً تاريخياً يهدف ليس إلى كتابة التاريخ والحفاظ على التراث الوطني فحسب، وإنَّما إلى الإجابة عن سؤالٍ أساسي هو: ماذا تعلَّمنا من تاريخنا؟ وما هي الدروس التي وعيناها؟ وماذا استفدنا من تجارب أجدادنا؟

ويهدف من ثمَّ إلى بيان سبل مواجهة مشكلات المرحلة التاريخية التي نعيش، في ضوء ما ينتهي إليه ذلك السِّياق من نتيجة كليِّة.

إن الكتاب، كما يتَّضح، قراءة في التاريخ هادفة، ولعلَّ هذا ما جعل مؤلِّفه يصدِّره بالآية الكريمة الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

مفهوم القتال/الجهاد

وذلك لأنَّ هذه الآية تحدِّد مفهوم القتال/النضال الذي يؤرِّخ المؤلِّف لحركاته، وتتمثَّل عناصر هذا المفهوم في ما يأتي:

القتال/الجهاد واجبٌ من أجل تحقيق هدفٍ محدَّد ترسمه تعاليم الله، وليس من أجل تحقيق أطماع عدوانيَّة. وهو لا يتمُّ ابتداءً أو اعتداءً، فإن حدث ذلك يخرج المعتدي من دائرة رضا الله وحبِّه.

يبدو لنا أنَّ دخول هذا المفهوم في تكوين شخصيَّة العامليِّ، منذ آونةٍ مبكِّرةٍ، جعل العامليِّين مسالمين، منصرفين إلى أعمالهم، إلى درجةٍ يبدون فيها مستكينين... ثمَّ لا تلبث أن تراهم يهبُّون فجأة مقاومين الاعتداء ببسالة وتضحية نادرتين.

يؤكِّد هذه الحقيقة العرض التاريخي الذي يقدِّمه كتاب «حركات النضال في جبل عامل»، ابتداءً من الانتماء إلى أبي ذرّ الغفاري ووصولاً إلى حرب الأيام السبعة، مروراً بمحطَّات عديدة، مثل حركة النهضة العلمية التي قدَّمت الشهيدين الأوَّل والثاني وعلماء آخرين، وحركة النهضة السياسية التي وصلت أوجها في عهد ناصيف النصَّار، وحركة الطيَّاحة ضد الجزَّار، وانتفاضة حسين ومحمد علي الشبيب ضد إبراهيم باشا، وحركة حمد المحمود، وحركة تأييد الثورة العربية على مختلف المستويات الفكرية والأدبيَّة، وخوض المقاومة المسلحة الخ...

خطاب تاريخي

قد نقول: إنَّ كتاباً يقرأ التاريخ من أجل الإجابة عن أسئلة الحاضر والمستقبل، بغية توظيف ذلك في سبيل دعوة ما، لهو كتابٍ أقرب إلى الخطاب التاريخي منه إلى التأريخ، ولكن أليس كلُّ كتابة، بما في ذلك كتابة التاريخ، تحمل في المحصلة خطاباً ما، وإن اعتمدت مناهج العلوم الإنسانية، ومن الأمثلة على ذلك كتابة تاريخ لبنان التي قرأناها في مدارسنا وجامعاتنا

ودرَّسناها، وما زلنا نفعل ذلك، إنَّهاخطاب السلطة التي تكوَّنت على أثر قيام لبنان الكبير ونيله استقلاله في ما بعد. ولعلنا نجد، في هذا الكتاب، وكتابات أخرى مماثلة، جهداً يبذل في سبيل ربط الحاضر بالماضي، والمناطق، إحداها بالأخرى، بعدما قطع خطاب السلطة تلك الروابط لصالح تاريخ منطقة يُفْرض بوصفه التاريخ الوطني العام.

إنَّ جهداً يبذل في سبيل إعادة تكوين السياق التاريخي للوطن لجهدٌ يوظَّف في تكوين هوية هذا الوطن. غير أنَّ هذا الجهد، وبخاصَّة إن تمثَّل في كتابة التاريخ/الخطاب، يثير مشكلتين: تتمثَّل أولاهما في أن تكون الكتابة اختياراً من التاريخ وتوظيف هذا الاختيار في خدمة مشروع ما. في هذه الحالة، تختلط الحقائق التاريخية بالرؤية إليها بالذاكرة الشعبية. الحقيقة أنَّ ذاكرة الشَّعب التاريخية، وإن تكن رؤية للحقائق، في كثيرٍ من الأحيان، وليس الحقائق الموضوعية (والسؤال الذي يُطرح هو: هل من وجود للحقائق التاريخية الموضوعية؟) تمثِّل حقيقة فاعلة في تشكيل السياق الذي يواجه الواقع وتحقيق أهدافه، ولعلَّها هي في هذا الجانب تكون الحقيقة الفاعلة. وهذا يقتضس اعتماد منهجية علمية تتيح للباحث التوصُّل إلى الحقيقة التاريخيَّة من نحوٍ أوَّل، وإلى الرؤية الشعبية إليها من نحوٍ ثانٍ، وإعادة كتابة التاريخ على هذا الأساس.

أبو ذر في جبل عامل

في التاريخ العاملي، ثمَّة حدث تأسيسي يمكن أن ننظر إليه بوصفه مثالاً على حضور الذاكرة واتخاذها صفة الحقيقة التاريخية، على الرغم من اختلاف المؤرِّخين في صحة هذه الحقيقة، الحدث الذي نعني مجيء أبي ذر إلى جبل عامل، وتنقُّله بين شرقه في ميس الجبل وغربه في الصرفند، وبثِّه تعاليمه خلال هذا التنقُّل.

يتحدَّث عدد من المؤرِّخين عن هذا الحدث بوصفه حقيقة تاريخيَّة مستندين إلى مصدرين: أوَّلهما ابن أبي الحديد، وثانيهما الحر العاملي.

يورد جهاد بنوُّت هذا الحدث بوصفه حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، وسنده

في ذلك بعض المؤرِّخين. ويشكِّك مؤرِّخون آخرون في صحة ما ورد، ويصفه بعضهم بـ «صنع الذاكرة و«الأسطورة».

إن الفصل في هذه المسألة، يحتاج إلى إقامة تصوُّر يستند إلى الثوابت التاريخية التي خلص إليها المؤرِّخون.

وأيَّاً يكن الأمر في مسالة حضور أبي ذرٍّ في التاريخ العاملي، سواء أكان ذلك حقيقة تاريخية أم صنع ذاكرة، فإنَّه يمثِّل في وجدان العامليين جذراً أسهم في تشكيل نمط تعاملهم مع واقعهم.

المعرفة التاريخية

هذا في ما يتعلَّق بالمشكلة الأولى التي يثيرها البحث التاريخي الموظَّف في تشكيل الخطاب. أمَّا المشكلة الثانية فتتمثَّل في إمكانيَّة تكامل مثل هذا البحث مع مناهج العلوم الإنسانية، بغية إنتاج معرفة تاريخية تواكب الواقع وتستشرف المستقبل.

يرى د. وجيه كوثراني، في مقدمته للكتاب: إنَّ هذا التكامل شرط انتاج تلك المعرفة، ويقرِّر، من ثمَّ، أنَّ هذا الكتاب هو خطاب ما قبل اتفاق الطائف، وما قبل التوازن الجديد في الصيغة اللبنانية، بل هو خطاب ما قبل التحوُّلات الدولية والإقليمية في العالم، كما يضيف.

في صدد هذه المشكلة، نرى أنَّ الدِّراسة التاريخية التي تقيم سياقاً تاريخياً ينظم حركة مقاومة شعب، ويكشف روحها الدافعة، وخصوصاً إن تذكَّرنا مفهوم القتال المقاومة الذي عرضناه آنفاً، نرى أنَّ هذه الدراسة تنجز هدفين: أولهما تحقيق التكامل مع مناهج العلوم الإنسانية بحسبان أنَّ ذلك التكامل شكل من أشكال مواجهة معوِّقات الواقع. وثانيهما السعي إلى إقامة توازن وطني حقيقي لا تطغى فيه خصوصيَّة مجموعة على خصوصيَّة مجموعة أخرى، لتلغيها، أو لتهمِّشها. هذا هو التوازن المثمر الذي يؤدِّي إلى قيام كيان/ بنية عامَّة تجد فيه جميع العناصر تحقُّقها وفاعليَّتها.

تبقى مسألة أخرى يثيرها د. كوثراني، وهي أنَّ هذا الكتاب خطاب ما قبل التحوُّلات الدولية والاقليمية في العالم.

في صدد هذه المسألة، يمكن القول: إنَّ هذا الكتاب أُلِّف في زمن مقاومة الاحتلال الإسرائيلي التي تلت اجتياح العام ١٩٨٢، ليثبت أنَّ هذه المقاومة لم تنبت من فراغ، وإنَّما كانت استمراراً في سياق تاريخيٍّ، من محطَّاته على سبيل المثال، ما يأتي:

ـ قال الصدر الأعظم العثماني ذات مرَّة: تنبغي محاصرة العامليين وتصفيتهم بحدِّ السيف الخ... فانتفض العامليون بقيادة ناصيف النصار، وانتصروا في معركتي كفررمان والغازية.

ـ قال مندوبٌ سام، ذات يوم: يمنع الاجتماع والمداولة في صيروة البلاد العائد حلُّ قضيتها للحلفاء الثلاثة، فتصدَّى العامليون لهذا القرار، فاجتمعوا، وتداولوا، وقرَّروا، وقاتلوا... ولا يزال قتال هذا القرار بنتائجه مستمرَّاً.

واليوم، في واقع التحوُّلات العالميَّة والاقليمية الجديدة، تهدر آلة حرب سادة هذه التحوُّلات، ويقول النَّاطق باسم هؤلاء السادة، مشيراً إلى الدمار الذي أحدثه الإسرائيليون في أثناء حرب الأيام السبعة: هذا هو مستقبل المنطقة إذا لم تتم التسوية، ونحن نسمع من يصنع لنا مستقبلنا على الشاكلة التي يريدها، هل نقول: إنَّ خطاباً مقاوماً كالذي يقدِّمه الكتاب خطاب ما قبل الراهن؟

المقاومة التي كتب المؤلِّف كتابه في ظلِّها كانت خارج الاستراتيجية العربية التي سعت إلى تحريك التسوية منذ هزيمة ١٩٦٧، وعلى الرغم من ذلك نجحت في دفع المحتل إلى الانسحاب، وهذا ما لم يفعله خلال تاريخ صراعه مع العرب.

إنَّ التَّسوية التي تقدِّمها التحوُّلات الجديدة تحمل أخطاراً منها خطر فَقْد الهوية والانقراض بوصفنا شعباً فاعلاً. والحديث عن مستقبل الشَّرق الأوسط وحضارته، بقيادة العنصر المهيمن في بنية هذا الشرق المزمع إقامته، يكاد يغدو سائداً.

شرط الحرِّية

في مواجهة مثل هذا الخطر، أيُّ خطاب يمكن أن يكون فاعلاً؟ ألا تكون الدِّراسة التي تحيي ذاكرة جوهرها المقاومة من أجل البقاء والنماء خطاب المرحلة، وأيُّ خطاب آخر يسهم، سواء قصد إلى ذلك أم لم يقصد، إلى تحقيق أهداف التسوية.

إنَّ هذه المرحلة تحتاج إلى إنسان تشتمل في وجدانه روح المقاومة، روح القتال، التي ترى إلى واقعها، وتنتج معرفة بمشكلاته وسبل مواجهتها، وليس شرطاً أن تكون هذه السبل عسكرية فحسب، فالشهيدان: الأوَّل والثاني، في حركات النضال العامليَّة، لم يخوضا حرباً، وإنَّما أنشآ حركة مجتمعية ناهضة ونمَّياها. وإنَّنا، في هذه المرحلة، مدعوُّون إلى مواجهة واقعنا بقوَّة هذه الروح الممانعة لكلِّ أشكال الأخطار التي تهدِّد وجودها وفعلها، وأوَّل هذه الأشكال محاصرتها ومنعها من الفعل، وهذا يعني أنَّ أوَّل شرط ينبغي تحقُّقه هو شرط الحرية والديمقراطية.

تاريخ مناضل

إن يكن هذا الكتاب يسهم في تعزيز هذه الرُّوح فحسب، فقد أتى في الوقت المناسب ليؤكِّد أنَّ الرُّوح المقاومة التي شكَّلت تاريخنا هي التي ستمكِّننا من توظيف قدراتنا في إقامة بنية مجتمعية حديثة تجسِّد الهوية وتربط المواطن بالمؤسسة التي يصنعها ليلبِّي حاجاته، هو ذا المشروع الذي يقتضي تشكيل جبهة مقاومة لتحقِّقه، وبهذا نكون أبناء تاريخ مناضل.

❐❐❐